19 me, année No 919

Le Caire 12 — 2 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ١٢ فبراير سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

الدين والسلوك الانسانى

للأستاذ عمر حليق

— ٣ —

ان يستطيع الباحث أن يمعن فى دراسة الدين والسلوك الإنسانى دون أن يتسلح بالنظريات والتطحات الفلسفية بالإضافة إلى تسجيله للظواهر الواقعية فى علاقة الفرد بالمجتمع

والباحث يجد نفسه والحالة هذه كدقات الساعة يميل تارة إلى النظريات وطورا إلى الواقع، فهذا نهج أقل مايقال فيه أنه سليم

فنظرة الماركسية إلى الدين — وهى نظرة مادية فى كليتها — لا تعترف بتلك الناحية الأصيلة فى فلسفة الدين وهى ما اصطلح الناس فى الغرب على تسميته بالاختبار الدينى (١). والذى يؤكد صلاح هذا النهج فى دراسة الدين كما شرحه الماركسيون بأنه وليد الأوضاع الاجتماعية ؛ فمثلا فى سلوك الطبقات التى تمارسه والتى هى بدورها متأثرة مسيرة بنفوذ ذوى المصالح المادية من رجال الدين ومن يلوذ بهم من القوى والعناصر الاقتصادية التى يربطها بالنظم الدينية روابط تقليدية متينة (٢). فى طبيعة التعاليم الدينية (وفى الإسلام على وجه الخصوص) دعوة سافرة إلى تقييد الحد من سلطات المتاجرين باسم الدين والذين يدورون حولهم من أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية ؛ وخلو الإسلام من الكهنوت قد جعل طبيعة التعاليم الدينية فى متناول الناس، بها يستهدون دون الحاجة إلى الوساطة، ومنها يستمدون سياسة عملية لتحسين الأوضاع الاقتصادية وتحقيق المساواة والعدالة فى العلاقات الإنسانية وقد تعرض ماكس ويبر لبحث هذا فى أسلوب منطق فريد فى كتابه عن « التاريخ الاقتصادى العام » (٣)

وتاريخ الإنسانية سواء أكان سياسيا أم اقتصاديا أم اجتماعيا ملىء بالحوادث التى لعب الدين فيها دورا إيجابيا فى صميم المصلحة المادية للكثرة من الناس وكم من عالم دينى جعل لواء الإصلاح السياسى والاقتصادى !

وفوق ذلك فإن للدين مزية تتعطش المجتمعات (والغربية منها على وجه الخصوص) لتحقيقها فى هذا العصر القلق المتفكك وأعنى بها التكافل الاجتماعى. وتاريخ الإسلام الاجتماعى فى هذا المضمار فريد ؛ فقد صهر الشعوب المجتمعات التى اعتنقت فى وحدة عاطفية واجتماعية وسياسية (ومن ثم اقتصادية) على نحو فشل

١) كتاب ويليم جيمس عن « ألوان الاختبار الدينى » من أمتع ما كتب فى هذا الموضوع. فهو تسجيل للتطحات الصوفية فى إطار الواقعة المستجدة من فلسفة الذرائع (البرجماتزم)

٢) راجع البيان الشيوعى

٣) راجع ماكس ويبر

Max weber, General Economic History

الفكر السياسي المعاصر في تحقيقه في عصبة الأمم المتحدة سابقا وفي هيئة الأمم المتحدة في الآونة الحاضرة

وهنا يجدر بنا أن نتريث قليلا لنتساءل عما إذا كان الدين أمرا يختص بالفرد دون المجتمع وعما إذا كان السلوك الانساني هو سلوك سلبي أم إيجابي ، بمعنى أنه مقصور على علاقة المرء بربه دون علاقة المرء بمجتمعه

والجواب عن هذا التساؤل كان ولا يزال مثار نزاع. فالصوفية من المسلمين مثلا اتجهوا في أقوالهم وسلوكهم الديني إلى أن وظيفة الدين هي وظيفة سلبية . ولعل هذا ما استدعى نقمة بعض أئمة المسلمين قديما وحديثا على الصوفية

فني القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وتراث السلف الصالح أجوبة عديدة على أن وظيفة الدين لا تقتصر على علاقة المرء بربه . والواقع أن طبيعة التعاليم الاسلامية تثبت وظيفة الدين الاجتماعية بجانب وظيفته الروحية؛ فهناك فقه إلى جانب تشريع. لقد اكتشف المسلمون ذلك وعملوا به . وكان الرسول عليه السلام أول من جاهر به . والقصة التي تروى عن عمر بن الخطاب وكيف انتهر رجلا كان يلازم المسجد ليل نهار مثل آخر على انتباه الاسلام إلى هذه الوظيفة المزدوجة للدين ويخيل إلى أن الاتجاه الجديد في الفكر الغربي حول وظيفة الدين يحذو حذو الإسلام [٤]

وقد أخذ بذلك (فردريك هيجل) أحد جهابذة الفكر الغربي ودعائمه الذي قال « إن ممارسة طقوس العبادة والصلوات أقوى من الناحية الإيجابية في توجيه السلوك الانساني من الشرائع والقوانين المدنية » [٥]

والواقع أن (هيجل) كان من أوائل من لفت النظر إلى وجود « المنطق الدوري » [٦] في علاقة النظريات والحقائق الواقعة في موضوع الدين ، فقال إن هناك تواكلا مشتركا بين النظم التي لها كيان إيجابي في المجتمع كالعائلة والقبيلة والدولة والشعب، وكلها حقائق اجتماعية ملموسة ، وبين النظم الفكرية كالقانون والعلوم والدين. فالكيان الإيجابي المحسوس هو كالنظم الفكرية - وفي طليعتها الدين وكلاهما جزء من شجرة الحياة [٧]

فالإنسان في المجتمعات البدائية لا يكتفي بأن يرث النظم الفكرية الدينية عن أسلافه، وإنما يسعى ما استطاع لأن يتخذ منها أسلحة يواجه بها مشاكله الدنيوية ، هذه المشاكل التي تختلف طبيعتها باختلاف التطور الحضري ومن هذا نتبين أمرين :

أولهما : أن السلوك الديني غريزة طبيعية يعتمل إلى تدائها الفرد لأنها خلقت فيه

ثانيهما : أن هذه الغريزة تتخذ في بعض الأطوار شكلا يجعل منها ذخيرة ثقافية تتحكم في الأوضاع الاجتماعية بالإضافة إلى كونها ذخيرة روحية تتحكم في علاقة المرء بربه سواء أكان هذا الرب صنما أم عجلا كما هو الحال في المجتمعات البدائية ، أم إلها فردا صمدا كما هو في الأديان التوحيدية

وإلى الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي (أميل دركهايم) يعود فضل كبير في دراسة هذه الوظيفة المشتركة (الروحية والدنيوية) للدين دراسة علمية على ضوء ما ألم به من معرفة بالمجتمعات البدائية وتحليله للمجتمعات الحضرية [٨]

فقد ثار دركهايم ومعه (باريتو) [٩] على الفلسفة الواقعية التي سادت أوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي كانت ميالة إلى الحط من قيمة الدين إثر انتشار الفلسفة الداروينية (نسبة إلى داروين) والماركسية في أوربا ، والفلسفة الذرائع (البرجماتزم) في أمريكا

قام دركهايم - وإلى حد ما باريتو - بدراسة وظيفة الدين المزدوجة على نهج جديد ، فلم يعتمد دركهايم على التفلسف في دراسة الدين ولا على استنتاج الشواهد العلمية من التاريخ الديني،

---

٤) راجع J. Macmorry. The Structure of Religious Experience

٥) Fredrich Hegel, Lectures in philosophy and Religion

٦) Circular Reasoning

٧) النظريات الحديثة في علم الانتروبولوجيا زادت في إثبات صواب الرأي على ضوء الدراسات التي قام بها أمثال (مالينوفسكي) وروث بنديكت ومرغريت ميد وبواز وغيرهم

٨) راجع E. Durkheim, Les Formes Elementaire de la Vie Religieuse

٩) الفيلسوف الإيطالي Vilfredo pareto Trattata di Sociologia Generale

وإنما لجأ إلى دراسة الموضوع دراسة مفصلة فى مجموعة إنسانية معينة من سكان استراليا الأصليين

وان يعنينا فى هذا البحث أن نستعرض تفاصيله ودراسته ، وإنما يهمنا أن نتعرف استنتاجاته الرئيسية

واستنتاجات دركهايم على نوعين : واحدة تعالج فلسفة المعرفة [١٠] وأخرى تعالج علم الدين الاجتماعى . وكلاهما عند دركهايم متواكل متشابك

ويرسم دركهايم خطين فى مستهل دراسته فيطلق على الأول ما سماه « قدسى » ويطلق على الثانى « دنس » ويضيف دركهايم تحت هذين الخطين أشياء ملموسة محسوسة . وهذا التصنيف لايحدد الصفات الجسمانية بطبيعة تلك الأشياء وإنما يحصر ذلك التحديد فى مفهوم الناس لها ومبلغ تأثرهم بها وسلوكهم إزاءها

فالأشياء القدسية فى تعريف دركهايم هى تلك التى ينطوى مفهوم الناس لها على فضائل فريدة تجلب السعادة والمنفعة . وسلوك الناس تجاه هذه الأشياء المقدسة لا يمكن أن يحسب فى عداد السلوك الاعتيادى ، إذ أن له مزايا خاصة وفيه للكثير من الاحترام الخالص الأصيل

والناس لا تستخدم الأشياء المقدسة فى الشؤون الاعتيادية وإنما تلجأ إليها فى الأزمات التى لا تمت إلى المادة إلا بصلة بعيدة

والشؤون الدنسة عند دركهايم هى تلك التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالنشاط الاقتصادى المادى فى السلوك الإنسانى [١١]

فإذا قتل الهندى الأحمر من سكان استراليا الحيوان المقدس ليأكله فإنه يفعل ذلك أثناء الطقوس الدينية فقط . والناحية المادية فى هذا العمل مرتبطة بالناحية المقدسة ولا دخل للمنفعة الاقتصادية المادية (أكل اللحم) فى هذا العمل إذ أنها لا تتوفر إلا عن طريق القداسة . وأكل لحم الحيوان المقدس لا يتم إلا فى ظروف من القداسة التى لها مواعيدها ومواسمها الزمنية الخاصة . وحول هذه القداسة حالات من الطوطمية تحددها وتتحكم فى سلوك الفرد إزاءها

والدين فى مفهوم الأقوام البدائية محصور العلاقة فى الأشياء المقدسة

ويصنف دركهايم الظواهر الدينية فى نوعين هما « العقائد » و « الطقوس » ؛ فالعقيدة لون من التفكير ، والطقوس نشاط عملى وكلاهما متشابك ، فلا تتم معرفة الطقوس الدينية إلا بمعرفة العقيدة التى استدعت ممارستها واستوجبت القيام بها

والدين عند دركهايم نظام مستقر من العقائد ، والطقوس تعيش عليها جماعة من الناس محورها بيت العبادة ومن يكون به من كهنة ورعية [١٢]

ويستنتج دركهايم من ذلك أن الدين الذى يتمكن تمكننا قويا متينا فى أتباعه لايمكن أن تكون تعاليمه مجرد خيالات ورؤى لا تسندها الحقائق الواقعية [١٣]

وكلما ازداد تعلق الناس بتعاليم دينهم وطقوسه كانت تلك التعاليم أكثر صلة ووثوقا بالحقائق المادية فى العالم الذى تحيط به

ولعل هذا الرأى يلقى ضوءا على سر تعلق المسلمين بالتعاليم الجوهرية فى دينهم الحنيف طوال هذه الأجيال والقرون

وينتقد دركهايم بناء على هذه النظرية ما قال به بعض مفكرى عصره من أن وظيفة الدين هى الحياة الروحية التى لا تربطها بالواقع روابط وثيقة ، وأن تعاليم الدين ما هى إلا انطباعات الإنسان عن طبيعة الأشياء المادية التى تحيط به

وركز دركهايم انتقاده لهذه النظرية فى أسلوب النقى المنطق فقال : لو أننا افترضنا أن تعاليم الدين ليست إلا انطباعات الإنسان عن طبيعة الأشياء المادية التى تحيط به كالمواصف والبراكين والخوارق الطبيعية ، فكيف نفسر تعلق الكثرة من العلماء الذين حافظوا على سلوكهم الدينى مع أنهم استطاعوا تفسير طبائع الأشياء تفسيرا علميا مستندا إلى الاختبار والبحث والاستقراء ؟ وعلوم النفس لم تفسر بعد تفسيرا عمليا مرضيا هذه الظاهرة التى تزداد رسوخا بتعمق العالم فى دراسة الكون ومعالمه

---

١٠) Epistomology

١١) Le travial est la forme emeale de l'activite protane

١٢) Durkheim, «Formes» Elementaires p.95

١٣) Epid P.3

واستنتج دركهايم من ذلك أن في الدين عنصرا ثالثا بالإضافة إلى عنصري الروح والمادة. وأطلق دركهايم على هذا العنصر الجديد اسم (الحقيقة الاجتماعية)(١٤)

ومن ثم اندفع دركهايم في دراسة الصلة بين الدين والكيان الاجتماعي فرأى أن الأشياء المقدسة (ومن ثم المثل الأخلاقية التي تبعث منها) لا تربطها بالمرء إلا روابط القداسة . فليست العبرة (في رأي دركهايم) في أن يعبد امرؤ شجرة أو عجلا أو شمسا أو قمرا أو إلها فردا صمدا، إنما العبرة في الفرد إزاء هذه المؤلهات، وامتثاله للقيم الروحية والأخلاقية التي تحيطها بهالة من القداسة . ورأى دركهايم في نظرية الطبيعيين إلى الدين عجزا دعيا في تفسير الحقائق التي تتصل بالقداسة اتصالا أصيلا عريقا . وكل ما فعله الطبيعيون أنهم وجهوا اهتمامهم إلى تفسير القداسة في الشؤون الطبيعية كالعواصف والبراكين والزلازل وتأثر العاطفة الإنسانية بها وإحاطتها بهالة من « القداسة والألوهية » والشذوذ ندرة، والنادر لا حكم له

ووجه الضلالة في تفسير الطبيعيين للسلوك الديني أنهم أخطأوا إدراك الحقيقة في مصدر القداسة والألوهية

فخواص العنف في العواصف والزلازل والبراكين ليست الدافع الرئيسي لتقديسها في المجتمعات البدائية . فالأشياء المقدسة ليست إلا رموزا . وخواص الرموز أنها تعبير للأهمية والقيم والمعاني التي يواجهها الفرد في نشاطه اليومي روحيا كان هذا النشاط أم ماديا

والصلة بين الفرد والرمز الذي يقدسه هي صلة اجتماعية بالإضافة إلى كونها صلة روحية. والفرد لا يتلمس معنى لهذه الرموز بقدر ما يطلب فيها ملاذا مما استعصى عليه من الأزمات الروحية والاجتماعية

فليست العبرة إذن في طبيعة الرمز المقدس؛ إنما العبرة في المثل والقيم والمعاني التي اصطلح الناس على إلحاقها به

ومثل هذا المنطق يشرح دركهايم علاقة الطقوس الدينية بالحقائق الاجتماعية ، فلا يهمه أن يتعرف على طبيعة هذه الطقوس وإنما يتشوق إلى إدراك القيم والمثل والمعاني العميقة التي تمثلها وترمز لها

وإصرار الطبيعيين على نعت السلوك الديني بأنه خال من المنطق السديد يعود إلى التباس الأمر عليهم وخلطهم بين طبيعة الرمز وبين ما يرمز إليه من قيم ومثل ومعان روحية واجتماعية

ويستخلص دركهايم من ذلك أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين في مجالاته الروحية والاجتماعية ؛ لأن العلوم الطبيعية مادية لا تقنع إلا بالملموس والمحسوس . وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تلمس لمسا . وهذا يفسر اتجاه الجهابذة من علماء الطبيعة والرياضيات نحو التفاسير الدينية في أرقى مراحل البحث في طبيعة الأشياء عندما يستعصي عليهم التفسير الشامل الإيجابي المقنع (١٥)

نيويورك (للبحث صلة) عمر مليبي

(١٤) Fait Sociale

(١٥) اعترف بهذا مؤتمر علماء الذرة الذي عقد في التاسع عشر من شهر ديسمبر ١٩٥٠ في جامعة روشستر في ولاية نيويورك ؛ فقد أعرب أعضاء هذا المؤتمر وهم صفوة علماء الذرة والفيزياء في الولايات المتحدة الأمريكية بأن تحطيم الذرة والتصرف على تكوينها والتغلب عليه قد طوح بالنظرية التي سبق لعالم ياباني أن فسر بها حقيقة تماسك الكون تفسيرا علميا نال به جائزة نوبل للفيزياء لعام ١٩٤٩ . وقد أوجد هذا التطور في علم الذرة والتفسير الفيزيائي لتماسك الكون بلبلة في تفكير علماء الطبيعة والرياضيات الفلسفية . وقد أعرب عن هذه البلبلة البروفسور انشتاين في أحد تصريحاته الأخيرة - وانشتاين قطب من أقطاب هذه الناحية من الثقافة الطبيعية

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هي القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألماني .

تطلب من مجلة الرسالة وثمنها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد